نخيل التمر عند المصريين القدماء

د. علي عفيفي علي غازي
أكاديمي متخصص بالتراث العربي
afifyhistory@hotmail.com

يعرف الشرق الأدنى القديم الحضارات مع استقرار الإنسان وممارسته الزراعة، وقد رافقت نخلة التمر سكان المنطقة في رحلة حياتهم، فمن المعروف أن موطنها الأول هو المنطقة المحصورة بين بلاد الرافدين والجزيرة العربية، ومنها انتشرت إلى باقي بقاع العالم. ترجع البداية إلى ما قبل استقرار الإنسان المصري القديم في وادي النيل، منذ ستة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح عليه السلام، في عصور ما قبل التاريخ، حيث كانت مصر موطناً للإنسان البدائي، الذي كان يصيد الحيوانات، ويعيش فوق الهضاب المصرية المنتشرة، في الظروف الطبيعية القاسية التي كانت تتحكم فيه، وكانت وسائل الحياة بدائية في ذلك الوقت، فكانت الأمطار تسقط بغزارة، وكانت الأعشاب والأشجار تنمو على سطح الهضبة، وعاش المصري القديم على جمع والتقاط الثمار، وصيد

شجرة نخيل التمر وشجرة الجميز

الحيوانات. ثم تعرضت مصر للتصحر، بعد أن قلت الأمطار وساد الجفاف، فاضطر إلى النزول إلى وادي النيل. وفى هذه البيئة الجديدة اهتدى إلى الزراعة، وأنتج الحبوب، مثل القمح والشعير، واستأنس الحيوانات، واستخدم الأواني الفخارية، وعاش حياة الاستقرار بدلاً من حياة التنقل التي عاشها فوق الهضبة، مما أوجد مجتمعات زراعية بمصر للمرة الأولى، وأرسى ثوابت الحضارة التاريخية، ومهد الطريق لقيام أول وحدة سياسية عرفها تاريخ البشرية.

يلعب نهر النيل الدور الأساسي في استقرار المصري القديم على ضفتيه، إذ وفر له الأمن والاستقرار، وربطه بوحدة مركزية قوية، فقد كان نهر النيل يأتي لمصر، التي وصفها المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت (484-425ق.م.) بأنها «هبة النيل»، كل عام بالفيضان؛ ليُغذي التربة بالطمي الذي تحمله مياهه من هضاب الحبشة بشرق أفريقيا، ومنابع النيل بجنوب السودان؛ ليزيد الأرض خصوبة ونماء، وهذه الظاهرة الفيضانية الطبيعية جعلت اقتصاد مصر في تنام متجدد معتمداً أساساً على الزراعة، فربط

توت عنخ امون

نهر النيل بهذه الصورة مصالح المصريين جميعاً من أقصى جنوب الوادي إلى أقصى شمال الدلتا. وقامت أول حضارة مصرية في منطقة «البداري» بمحافظة أسيوط بالصعيد على الفلاحة، والصيد، وتربية الطيور والمواشي، وصناعة الفخار، والتعدين، كما وجد بالفيوم مستوطنون عرفوا الزراعة في نفس التوقيت الذي بدأت فيه الزراعة في «البداري». وفي سنة 3500 قبل الميلاد يعرف المصري القديم نُظم الري البدائي، الأمر الذي دفعه إلى بناء المساكن، واستقرت كل جماعة في قرية يتعاونون في زراعة الأراضي المحيطة بهم، وتكونت القرى من تجمع عدد من الأسر في مكان واحد، واتخذت كل قرية معبودها الخاص، وكانت القرى بداية العمران البشري.

يُشير بعض المؤرخين والآثاريين إلى أن المصريين القدماء عرفوا نخيل التمر Date palm منذ فجر الضمير، وقد عُثر على بقايا جذوع النخيل في الواحات

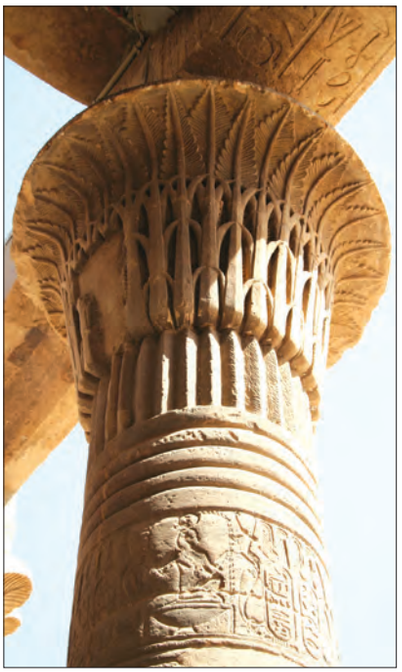

الاعمدة النخيلية في معبد فيلة

نخيل البلح حول حوض به ماء، قبر «رخميرع» بطيبة - عصر الدولة الحديثة

تمر عثر عليه في احد المقابر الفرعونية

الـخـارجـة تـرجـع إلى الـعـصـر الـحـجـري القديم، حيث انتشرت زراعته وازدهرت في مختلف أنحاء مصر، وورد ذكر البلح ضمن نقوش قبر «نفر ماعت» بميدوم من الأسرة الرابعة (-2680 2560ق. م.) باسم «بنر أو «بنرت»، بمعنى «الحلاوة»، وهي تسمية قديمة تنفرد بها اللغة الهيروغليفية، وعرف الفراعين التمر كذلك باسم «آمت»، ولعلها نفس الكلمة التي تُطلق اليوم على نوع من البلح يُسمى «أمهات». وزرعوا منه أصنافاً كثيرة، أحسنها ما نبت في مصر العليا، وعلى حافة الصحراء المجاورة لوادي النيل. ويؤكد أحد الباحثين أن الفراعين عرفوا أنواع أخرى من النخيل، منها «نخيل الدوم Doum Palm"(ماما)، الذي

شجرة النخيل تزين جدران مقبرة سن نجم

مشهد فرعوني يمثل جني التمور

زرعوه في الحدائق لجمال شكله، وفائدة أخشابه، التي استخدموها كدُعامات لأسقف المنازل وساريات السفن. وعرفوا كذلك «نخيل العرجون (ماما إن خنت)، حيث قدموا ثماره قرابين للآلهة. وكان علماء الآثار في مصر قد عثروا في بعض القبور على أنواع عديدة من البلح الصالح للأكل ترجع لعصر الدولة الحديثة (1575-1087ق. م.)، ومن ذلك بعض البلحات في مقبرة الفرعون الذهبي «توت عنخ آمون» (1334-1325ق. م.)، والتي عثر عليها في عام 2007. ولطالما اعتبر الفراعنة النخيل رمزاً للحياة الطويلة، وكان بعض الفراعنة يحملونه بأيديهم. وشُوهدت صور ورسوم تشرح طريقة إجراء عملية التلقيح، في معابد قدماء المصريين ومقابرهم.

يُكرّم المصريون القدماء النخلة، أسطورة الأجيال، وزينوا بها ردهات المعابد ومداخل القصور، وظلت تحتل عبر سنوات الدهر ومر العصور مكانة عالية مرموقة عندهم. ونالت شجرة النخيل لديهم اهتماماً كبيراً، إذ سحرهم منظرها الجميل، وساقها الرشيقة الفارعة، فمنظر النخيل يؤثر في النفس لما له من هيبة وجلال. وقد عُثر على كأس جميلة من الخزف الأزرق من عصر

نخيل الدوم في احد المقابر الفرعونية

الدولة الحديثة نُقشت عليها صورة لأربعة صبية وهم يجنون ثمار البلح، بينما القردة تساعدهم في جنيها. إذ يُشير أحد الباحثين في علم الفرعونيات إلى أن المصريين القدماء قد دربوا القردة للمساعدة في جني ثمار النخيل، وخاصة نخيل الدوم، نظراً لحُبها لها، فكانت تُسرع إلى النخلة، وبعد أن تُترك لحظة عليها يجذبها صاحبها فتثور وتلقي بالثمار، وتتكرر هذه العملية حتى تلقي بعدد كبير منها. ويذكر باحث آخر إلى أن المصريين القدماء عرفوا التلقيح الصناعي عن البابليين في عصر الدولة الحديثة.

تُظهر جولة بين الآثار القديمة لحضارة ووادي النيل الظهور البارز لشجرة النخيل في النقوش والرسوم والآثار، وهي خير شاهد على أهمية هذه الشجرة. ومن تلك الرسوم الأثرية نُشاهد في إحدى الصور الموجودة على أحد جدران مقبرة «رخمي رع» بطيبة من عصر الدولة الحديثة نخيل

حبل من ليف النخيل من الزمن الفرعوني

البلح شامخاً في الجو حول حوض به ماء، وتبدو دقة الفنان المصري القديم عند التعبير في إبراز هذه الشجرة المقدسة، وجميع الأشجار المزروعة تحمل ثماراً. ونشاهد على أحد جدران مقبرة «سن نجم» بطيبة من الأسرة التاسعة عشرة (1292-1185 ق. م.) صورة تُمثل أشجار الجميز ونخيل البلح والدوم وهي مليئة بالثمار، ويلاحظ دقة التعبير والتمييز بين الأشجار المختلفة.

تُشير النقوش التي عُثر عليها على مقابر ومعابد المصريين القدماء أن الفراعين قد أكلوا ثمار التمر طرية ومجففة، وكانوا يحفظون بعضاً منها، واستخرجوا منها «منقوع التمر»، وهو شراب لا يزال بعض المصريين يستخرجونه حتى اليوم. وفي عصر الأسرة السادسة (2323-2150ق.

منتجات فرعونية مصنوعة من سعف النخيل

م.) صنعوا من عصارة شجرة النخيل نوعاً من الشراب المُسكر، والمعروف باسم «شراب الحياة»، وكانوا يحصلون عليه بعمل حز في جمار الشجرة تحت قاعدة أغصانها العليا مباشرة، حيث يُمكن استنزاف النخلة مرة أو مرتين في الشهر من دون أن تصاب بضرر ما، وهذا السائل فور أخذه من النخلة لا يكون مُسكرًا، ولكنه يكتسب هذه الصفة بالتخمر عندما يُستبقى، ويتمّ تخمره بواسطة الخمائر البرية الموجودة على النخلة وفي الهواء. ويشبه في طعمة نبيذ العنب الجديد الخفيف جداً. وكانوا يصدرونه للخارج، ويعتقد البعض بأنه هو الشراب المعروف الآن في واحة سيوة باسم «اللقبي». وعلى أية حال فإن النخلة التي تُستنزف بهذه الطريقة تصير عديمة النفع في إنتاج التمر وتموت عادة. كذلك استخرجوا من التمور نوعاً من الخمر. وقد ورد في نصوص الأهرام ذكر نخلة تُنتج نبيذاً، وذكر هيرودوت اليوناني وديودور الصقلي (90-30ق.م.) أن نبيذ النخيل كان يُستخدم في مصر لغسل التجويف البطني أثناء عملية التحنيط. كذلك استخرج المصريون القدماء نبيذ البلح، حيث ورد ذكره في نصوص بردية من عهد الأسرة السادسة، ومن عهد الأسرة التاسعة (2160-2130ق. م.). ويذكر المؤرخ الإيطالي القديم بليني (23-79م) أن طريقة تحضيرة بأن يُنقع نوع معين من البلح في الماء، ثم يُعصر لاستخراج الخلاصة السائلة، التي تُترك لتتخمر طبيعياً بتأثير الخمائر البرية الموجودة على البلح.

تتنوع فائدة النخيل عند المصريين القدماء؛ إذ لم تقتصر على أكل ثماره؛ بل استعملوا الجريد في البناء، واستعانوا في عمل سقوف منازلهم ومقابرهم المبنية من الطوب اللبن بجذوع النخل من عصر ما قبل الأسرات. وعندما استعملوا البناء في عصورهم التاريخية اللاحقة لم ينسوا النخلة، فقلدوا شكل جذوعها في سقوف المعابد، وفي أسقف المقابر، كما يُشاهد في مقبرة «رع ور» بالجيزة، والتي ترجع إلى عصر الأسرة الرابعة (2575-2465ق. م.). وإذا نظر المرء إلى جذوع النخيل العارية المرتفعة ظن أنه يُشاهد تلك الأعمدة الرشيقة، التي أبدع الفنان المصري القديم في صنعها، فقد اتخذ من النخيل مورداً لا ينضب لوسائل الزخرفة، وكثرت طرز الأعمدة التي تُمثله في القبور والمعابد طوال العصور الفرعونية. وكان المصريون القدماء يُقدمون سعف النخل مع البلح المجفف بكميات وفيرة قرباناً لآلهة النيل. ونخيل البلح هو«نبات أوزيريس». وجاء في بردية «هاريس» أن رعمسيس الثالث (1183-1152ق.م.)، أشهر ملوك الأسرة العشرين (1186- 1072ق.م.) قال: «أنشأت لك بُستاناً، وغرست فيه أشجار السنط والنخيل، وزينت أحواضه باللوتس والبردي». وكان النخيل من أهم الأشجار التي ازدانت بها الحدائق المصرية القديمة، ومن أمثلة ذلك الحديقة التي ترجع إلى عصر الأسرة الرابعة، والمعروفة بحديقة «مثن Methon".

يُدخل الفلاح المصري القديم كذلك النخيل ومشتقاته في صناعة الأدوات اللازمة له في الحقل، والأثاث في المنزل، فصنع من سعف النخيل الحصر والسلال والأطباق، والقفف والمقاطف والعبوات، وهي صناعات لا يزال المصريون يعرفونها

نوى التمر عثر عليها بمقبرة توت عنخ آمون

حتى اليوم. ومن الخوص صنعوا السلال والأخفاف والنعال، والكراسي والغرابيل من السعف والليف والجريد، وقد عُثر على غرابيل مستديرة الشكل ترجع إلى عصر الدولة الحديثة، محفوظة الآن في قسم الزراعة القديمة بالمتحف الزراعي وفي المتحف المصري، صُنعت بنفس طريقة تضفير السلال، إذ صُنعت شبكة الغربال من ليف النخيل والسعف. ومن الألياف صنعوا الحبال القوية الصلبة، التي استعملت في عملية الربط والتثبيت لبعض أجزاء قطع الأثاث. واستخدموا الجريد في صناعة العصير والكراسي الخفيفة، والسباط والعثاليج في صناعة الفراجين والمكانس، حيث كانت تُجمع وتُربط من أعلى بحبل رفيع أو جريد النخيل مكونة بذلك يد المكنسة. واستفادوا من الألياف في الاغتسال. ومن الجذوع عملوا مجاري القنوات والأفلاج والسدود، وتزينوا بقلائد من البلح، وقد عُثر على عُقد يمثل البلح وحباته من الخزف الأخضر في أحد قبور الأسرة الثامنة عشر (1575-1308ق.م.) محفوظ بقسم الزراعة القديمة بالمتحف الزراعي بالدقي في القاهرة. كما دخل مسحوق نوى البلح وزيوته في العديد من الوصفات الطبية. ويذكر أحد الآثاريين أن أغصان النخيل كانت ترمز إلى السنة (العام).

يستخدم المصري القديم خوص النخيل في صناعة السلال، حيث استخدمه لكل من اللفائف والتدثيرات، وقد استعملتْ الخوصة بأكملها للشغل الغليظ، ولكنها كانت تُسقق إلى سلخات قليلة العرض للشغل الرفيع، كما كانت الجريدة في بعض الأحيان تُشقق إلى سلخات وتُستعمل لعمل هياكل السلال. ولا يزال خوص النخيل مُستعملاً لصُنع السلال في الوقت الحاضر. واستخدم الصانع المصري القديم كذلك عراجين وخوص البلح في صنع المكانس، وفرشاة صغيرة للتلوين، والتي تشبه إلى حد كبير جداً في مظهرها العام أحد أنواع فرشاة الحلاقة الحديثة. وكان ليف النخيل هو المستخدم بصفةٍ عامةٍ لصُنع الحبال في مصر قديماً، ولا يزال يُستخدم لنفس الغرض في الوقت الحاضر. وليف النخيل عبارة عن ألياف متشابكة بعضها ببعض تشابكاً طبيعياً بحيث تتكون منها مادة تشبه النسيج تكون أولاً ملتفة حول السعف، وهي توجد عند قمة شجرة النخيل محيطة بقلف الفروع. وقد ورد ذكر «200 حزمة من ليف النخيل لصُنع الحبال»، في بردية مصرية قديمة تاريخها غير معروف، وإن كان البعض يُرجح أنها من عصر متأخر. وكذلك صنع المصري القديم من ليف وجريد النخيل الحُصر، وقد عُثر بالعمارنة على حصيرة كبيرة مصنوعة من ليف النخيل مربوطة بحبال من القُنب.

تُشير الدراسات الحديثة إلى أن الستائر التي كانت تُستخدم في العصور القديمة؛ كانت تُصنع من سعف النخيل، الذي يُوضع على الأبواب والنوافذ والشبابيك، وكانت تُرش وتُرطب بالماء فيمر عليها الهواء ويدخل إلى المسكن بعد أن تُلطفت درجه حرارته ورطوبته، ويُنقى من الأتربة والغبار العالق به. ولقد أظهرت الرسوم

الأثرية أن أشجار نخيل التمر زُرعت مجاورة للمباني السكنية؛ كي تقوم بتنظيف الهواء وتنقيته وتلطيفه، حيث تعمل الأوراق كمصفاة تعلق بها الأتربة وذرات الغبار، إضافة إلى أن أوراق الشجرة تُوفر غاز الأوكسجين كأحد نواتج عملية البناء الضوئي، وتعمل الأشجار على تنظيم الرطوبة والحرارة بالجو المحيط بها، وتمتص الملوثات من الهواء. وفي ضوء ذلك فإن الهواء الذي يمر على أشجار النخيل يكون نظيفاً، ومُعتدل الحرارة والرطوبة، أي أن المصريين القدماء استخدموا أشجار النخيل كملطف ومكيف للهواء، وهذه نفس فكرة مبردة الهواء المستعملة في وقتنا الحاضر.

يتيمن قدماء المصريين بثمار النخيل وسعفه، فكانوا يصفون من السعف الباقات والأكاليل الجنائزية، وينثرون السعف في الطرقات التي تمر بها الجنازات، ولا يزال بعض المصريين يتبركون به فيحملون الباقات المصنوعة منه إلى القبور، ويوزعون ثماره صدقة على أرواح موتاهم. وقد عُثر على صورة تمثل رجالاً يحملون سعف النخيل في طريقهم إلى قبور موتاهم. وقد عثر الدكتور «رين هارت Rein Hardt" على مومياء ملفوفة في حصير من سعف النخيل في مقبرة بجهة الزريقات قرب مدينة أرمنت بصعيد مصر ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات. وعُثر كذلك على نخلة صغيرة كاملة ملفوفة حول مومياء بإحدى مقابر سقارة من عصر الأسرة الأولى (-3200 2890 ق. م.)، وعصرها سابق لمعرفة القدماء بالتحنيط، حيث إن أول دليل قاطع على ممارسة المصريين القدماء فن التحنيط يرجع إلى أوائل الأسرة الرابعة. وقد وجد أن النخلة الأثرية هذه لا يختلف شكلها كثيراً عن النخل الحالي.

يستخدم المصريون القدماء كذلك نبيذ البلح، وهو عبارة عن عصارة تؤخذ من شجرة النخيل ويحتوي على 14% كحول إثيلي، في حفظ الجثث المعدة للتحنيط؛ لاحتوائه على الكحول، واعتبره المحنطون من المواد المعقمة، ولهذا استخدم في تنظيف تجويفي الجمجمة والبطن، وفي تنظيف اليدين قبل وضعهما داخل الجسد. وجعلوا من الخوص حديث النمو فراشاً لبعض جثث الموتى. وقد وجد سقف مقبرة من جذوع النخيل في سقارة من الأسرة الثانية (-2890 2780 ق. م.). وسقف آخر من الحجر منقوش عليه جذوع النخيل في قبر «رع أور» بالجيزة، وقبر «بتاح حتب» بسقارة من الأسرة الخامسة (-2560 2420 ق. م.)، كما وجدت صور نخيل البلح على جدران مقابر أخرى، وخاصة من الأسرة الثامنة عشر (1575-1308 ق. م.)، وضمن نقوش معبد الملكة حتشبسوت (1490-1468ق. م.) بالدير البحري بطيبة، وتدل تلك النقوش على أنه جُلب من بلاد «بونت» (الصومال).

المصادر والمراجع

أحمد صالح: التحنيط، فلسفة الخلود في مصر القديمة، (القاهرة: جماعة حور الثقافية، 2000)، ص 64.

عاطف محمد إبراهيم؛ محمد نظيف حجاج خليف: نخلة التمر... زراعتها ورعايتها وإنتاجها في الوطن العربي، (الإسكندرية: منشأة المعارف، 1993)، ص 13-17.

عبد الجبار البكر: نخلة التمر ماضيها وحاضرها، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2002)، ص 11، 12.

علي عفيفي علي غازي: نخيل الخليج العربي في دليل لوريمر، (بيروت: دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، 2015)، ص 23-25.

فتحي حسين أحمد علي: نخلة التمر... شجرة الحياة، (القاهرة: الدار العربية للنشر والتوزيع، 2005)، ج1، ص 38، 39.

مهاب درويش: الأثاث في مصر القديمة، (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، د. ت.)، ص 9، 10.

مهاب درويش: الزراعة والري في مصر القديمة، (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، د. ت.)، ص 43-45.

وليم نظير: الثروة النباتية عند قدماء المصريين، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970)، ص 123-129.

ألفريد لوكاس: المواد والصناعات عند قدماء المصريين، زكي إسكندر ومحمد زكريا غنيم (ترجمة)، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1991)، ص 40-42، 225، 229-231، 508.